بسم الله الرحمن الرحيم

٤١ - سورة فصلت

(حمٓ السجدة)

سميت بها لاشتمالها على آية سجدة . تدل على بطلان عبادة المظاهر بالكلية . وأن الله يستحق بذاته أجلّ العبادات . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايميّ . وهي مكية . وآيها أربع وخمسون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

« حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » قال أبوالسعود : إن جعل (حمٓ) اسماً للسورة، فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، وهو الأظهر ، أو مبتدأ خبره (تَنزِيلٌ) * وهو على الأول خبر بعد خبر . وخبر لمبتدأ محذوف ، إن جعل مسرودا على نمط التعديد . وقوله تعالى (مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) متعلق به ، مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية ، بالفخامة الإضافية . أو خبر آخر . أو (تَنزِيلٌ) مبتدأ لتخصصه بالصفة ، خبره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« كِتَٰبٌ » وهو على الوجوه الأول بدل منه ، أو خبر آخر ، أو خبر لمحذوف . ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم ، للإيذان بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية ، واقع بمقتضى الرحمة الربانية ، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى[1] (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ) « فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ » أى بينت بالاشتمال على جميع المطالب الدينية ، مع الدلائل العقلية « قُرْءَانًا عَرَبِيًّا » أى بلسان عربى يتيسر فيه من جميع الفوائد ما لا يتيسر فى غيره . وانتصاب (قُرْءَانًا) على المدح ، أو الحالية من (كِتَٰبٌ) لتخصصه بالصفة ، أو من (ءَايَٰتُهُۥ) « لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى مقداره ومعانيه . أو لأهل العلم والنظر .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

« بَشِيرًا » أى للعاملين به ، الناظرين فيه ، والمستخرجين منه، بالنعيم المقيم «وَنَذِيرًا» أى للممرضين عنه بخلود الأبد فى نار جهنم « فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ » أى أكثر هؤلاء القوم ، الذين أنزل هذا القرآن بشيرا ونذيرا لهم ، فلم يتدبروه « فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى لا يصغون له ، عتوًّا واستكبارا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ)

« وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » أى أغطية متكاثفة ، لا يصل إليها شىء مما تدعونا إليه، من التوحيد وتصديق ما فى هذا القرآن من الأمر والنهى والوعد والوعيد « وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ » أى صمم ، لا نسمع ذلك، استثقالا له وكراهية «وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » أى فلا تواصل ولا تلاق على ما تدعى إليه « فَاعْمَلْ» أى على ما تدعو إليه، وانصب له « إِنَّنَا عَامِلُونَ » أى على ما ألفينا عليه آباءنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ)

[٧] (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

[٨] (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

« قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ » أي بالتوحيد وإخلاص العبادة ، من غير انحراف إلى الباطل والسبل المتفرقة « وَٱسْتَغْفِرُوهُ » أي بالتوبة من الشرك « وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ » أي لا يزكون أنفسهم بطاعة الله ، أو لا ينفقون من أموالهم زكاتها . وهذا مارجحه ابن جرير(١) ، ذهاباً إلى أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة . لاسيما مع ضميمة الإيتاء . وفيه إشارة إلى أن من أخص صفات الكفار هو منع الزكاة ، ليحذر المؤمنون من ارتكابه. وعن قتادة : إن الزكاة قنطرة الإسلام . فمن قطعها نجا ، ومن تخلف عنها هلك . قال ابن جرير(٢) : وقد كان أهل الردّة ، بعد نبيّ الله ، قالوا : أما الصلاة فنصلي . وأما الزكاة، فوالله ! لاتغصب أموالنا. قال فقال أبو بكر : والله ! لاأفرق بين شيء جمع الله بينه . والله! لو منعوني عقالاً مما فرض الله ورسوله ، لقاتلناهم عليه « وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ » أي بإحيائهم بعد مماتهم للمجازاة « هُمْ كَٰفِرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أي عليهم . أو غير منقوص . أو غير منقطع . أو غير محسوب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ، ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[١٠] (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ)

« قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ » أي في مقدارها .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وعلمهم بصلة الموصول ، إما لما تلقوه خلفا عن سلف ، فاستفاض بينهم . أو لما سمعوه من الكتب السالفة ، كالتوراة ، فأذعنت بذلك نفوسهم ، حتى صار معهودا لها « وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا » أى أكفاء (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) « ذَٰلِكَ » أى الذى خلق الأرض فى يومين « رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ » أى جبالا ثوابت « مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا » أى أكثر خيرها « وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ » أى مستوية بالامتزاج والاعتدال ، للطالبين للأقوات والمعايش . أى قدرها لهم ، أو لمن سأل عن مبلغ الأجل الذى خلق الله فيه الأرض ، وجعل فيها الرواسى والبركة ، وتقدير الأقوات. فحدّه ، كما أخبر تعالى ، أنه أربعة أيام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

« ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ » أى قصد إلى إيجادها . و (ثم) للتفاوت بين الخلقين فى الإحكام وعدمه ، واختلافهما فى الجهة والجوهر ، لا للتراخى فى الزمان ، إذ لا زمان هناك. قاله القاشانىّ .

وقال ابن جرير[٢] : أى ثم ارتفع إلى السماء ، أى بلا تكييف ولا تمثيل « وَهِيَ دُخَانٌ » قال القاشانىّ : أى جوهر لطيف بخلاف الجواهر الكثيفة الثقيلة الأرضية . وقال القاضى: (دخان) أمر ظلمانىّ . ولعله أراد به مادتها . أو الأجزاء المصغرة التى ركبت منها . وأصله للرازىّ حيث قال : لما خلق تعالى الأجزاء التى لا تتجزأ ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء ، كانت مظلمة عديمة النور ، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمسا وقمرا ، وأحدث صفة

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

الضوء فيها ، فحينئذ صارت مستنيرة . فثبت أن تلك الأجزاء ، حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر ، كانت مظلمة . فصح تسميتها بالدخان . لأنه لامعنى للدخان إلا أجزاء متفرقة ، غير متواصلة ، عديمة النور . ثم قال: فهذا ماخطر بالبال فى تفسير الدخان. والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك فى تفسير هذه الآية (وَهِيَ دُخَانٌ) : أى ذرات ، أى غازات أى سديم . ثم تجاذبت كما يتجمع السحاب فصارت كتلة واحدة . مصداقا لقوله تعالى[1] (أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) أى كتلة واحدة . فدارت ثم تقطعت وتفصلت بالقوة الدافعة ، فتكونت الأرض والسماوات ، تصديقا لقوله تعالى (فَفَتَقْنَٰهُمَا) أى فصلناها ، فصارتا كرات من الماء فى يومين. أى ألفى سنة. لقوله تعالى[2] (وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) وفى هذا الوقت كان عرشه على الماء. أى كان ملكه وسلطانه على الماء، والله أعلم. انتهى والله أعلم «فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ » قال القاشانىّ : أى تعلق أمره وإرادته بإيجادهما ، فوجدتا فى الحال معا . كالمأمور المطيع ، إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع لم يلبث فى امتثاله . وهو من باب التمثيل . إذ لاقول ثمة . انتهى .

وقال ابن جرير[3] : أى قال الله جل ثناؤه للسماء والأرض : جيئا بما خلقت فيكما . أما أنت ياسماء ، فأطلعى ماخلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم . وأما أنت ياأرض فأخرجى ماخلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات . وتشققى عن الأنهار (قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) أى جئنا بما أحدثت فينا من خلقك، مستجيبين لأمرك، لانعصى أمرك. انتهى. يعنى أن إثبات المقاولة مع السماء والأرض من المجاز. إما بالاستعارة المكنية، كما تقول (نطقت

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٠] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

الحال) فتجعل الحال كإنسان يتكلم فى الدلالة ، ثم يتخيل له النطق الذى هو لازم المشبه به ، وينسب إليه . وإما بالاستعارة التمثيلية بأن شبه فيه حالة السماء والأرض التى بينهما وبين خالقهما ، فى إرادة تكوينهما وإيجادهما ، بحالة أمير ذى جبروت له نفاذ فى سلطانه ، وإطاعة مَن تحت تصرفه من غير تردد . وقدرّ غير واحد قول من ذهب إلى أن فى الجمادات تمييزا ونطقا على ظاهر أمثال هذه النصوص . منهم ابن حزم . قال فى (الفصل) : وأما قوله تعالى (قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) فقد علمنا بالضرورة والمشاهدة أن القول فى اللغة التى نزل بها القرآن ، إنما هو دفع آلات الكلام من أنابيب الصدر والحلق والحنك واللسان والشفتين والأضراس ، بهواء يصل إلى آذان السامع ، فيفهم به مرادات القائل . فإذ لاشك فى هذا ، فكل من لا لسان له ولا شفتين ولا أضراس ولا حنك ولا حلق ، فلا يكون منه القول المعهود منا . هذا مما لا يشك فيه ذو عقل . فإذ هذا هكذا كما قلنا بالعيان ، فكل قول ورد به نصّ ولفظ مخبر به عمن ليست هذه صفته ، فإنه ليس هو القول المعهود عندنا . لكنه معنى آخر . فإذ هذا كما ذكرنا ، فبالضرورة صحّ أن معنى قوله تعالى (أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) إنما هو على نفاذ حكمه عز وجل فيهما وتصريفه لهما . انتهى .

وكذا الحال فى (ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) فإنهما لما نزلا ـ وهما من الجمادات ـ منزلة العقلاء ، إذ أُمرا وخوطبا على طريق المكنية أو التمثيلية ، أثبت لهما ماهو من صفات العقلاء من الطوع والكره ترشيحا . وهما مؤولان بـ (طائع وكاره) لأن المصدر لايقع حالا بدون ذلك ، ويجوز كونهما مفعولا مطلقا . وإنما قال (طَآئِعِينَ) بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء الذكور . وكان مقتضى الظاهر (طائعات) أو (طائعتين) نظراً إلى الخطاب والإجابة والوصف بالطوع والكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ)

« فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ » أى أحكمهن بإزالة رخاوة الدخان . قال المهايمىّ : ولم يجعل لمادتها يوما . لأنها كمادة الأرض . فدخلت فى يومها « وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا » أى ما أمر به فيها ودبّره من الملائكة والخلق الذى فيها ، وما لا يعلم « وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ » فإنها كالسقف المرفوع المزين بمصابيح معلقة به ، مما يدعو إلى الاستدلال بها على قدرة صانعها وحكمته « وَحِفْظًا » أى من الشياطين أن تسترق أخبارها « ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)

« فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ » أى عن هذا الاستدلال ، وعن الإيمان بهذا العزيز الغالب على كل شىء ، الذى اقتضى علمه ترتيب بعض الأمور « فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » لأنكم مثلهما فى العناد ، ومثل عاد فى الاستكبار ، ومثل ثمود فى استحباب العمى على الهدى .

قال ابن جرير[1] : قد بينا فيما مضى أن معنى الصاعقة كل ما أفسد الشىء وغيّره عن هيئته . وقيل فى هذا الموضع : عُنِىَ بها وقعة من الله وعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ، قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ)

[١٥] (فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

[١٦] (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ)

* إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ » قال الزمخشرىّ : أى أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتوّ والإعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان[1] (لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن فيهم كل حيلة . وتقول (استدرت بفلان من كل جانب ، فلم يكن لى فيه حيلة) . وحاصله جعل الجهتين كناية عن جميع الجهات ، على ماعرف فى مثله. والمراد بإتيانهم من جميع الجهات ، بذل الوسع فى دعوتهم على طريق الكناية . ويحتمل أن المعنى : جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضى وما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى عليهم . فالمراد بما بين أيديهم الزمن الماضى ، وبما خلفهم المستقبل . ويجوز فيه العكس، كما ذكر فى آية الكرسىّ «أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا اللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا» أى إرسال رسول « لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً » أى من السماء بما تدعوننا إليه « فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ » أى من عبادة الله وحده « كَٰفِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً » أى حتى نخاف عذابه ، لو تركنا عبادته ، أو عبدنا معه غيره « أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً » أى فيجب أن يحذر عقابه ويتقى عذابه « وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا » أى التى هى أقوى الدلائل « يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ » أى لعتوّهم بالقوة « رِيحًا صَرْصَرًا » أى شديدة الصوت فى هبوبها « فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ » أى مشؤومات عليهم « لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » أى فى الأخرى . كما لم ينصروا فى الدنيا .

تنبيه :

قال الرازىّ : استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون

(١) [٧ / الأعراف / ١٧] .

نحساً وبعضها قد يكون سعدا . لأن النحس يقابله السعد ، والكدر يقابله الصافى . ثم أطال الرازىّ فى الجواب والإيراد . ولا يخفى أن السعد والنحس إنما هو أمر إضافىّ لا ذاتىّ . وإلا لكان اليوم الذى يراه المنجمون نحسا ، مشؤوم الطالع على كل ما أشرقت عليه الشمس . وكذا ما يرونه سعدا . والواقع بخلاف ذلك . إذ اليوم النحس عند زيد ، قد يكون سعدا عند بكر . بل الساعة بل الدقيقة . فأين تلك الدعوى ؟ والقرآن أتى على أسلوب العرب البديع . ومن لطائفهم تسمية وقت الشدّة والبؤس بالنحس ، ومقابلها بالسعد. فالنحس نحس على صاحبه ، والسعد سعد على صاحبه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ » أى بيّنّا لهم سبيل الحق وطريق الرشد . ونهيناهم أن يتبعوا الضلالة . وأمرناهم أن يقتفوا الهدى « فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى من الآثام ، بكفرهم بالله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

« وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى يخشون ربهم ويخافون وعيده . وذلك بالإيمان به وحده وتصديق رسله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يوم يجمع، لمزيد الفضيحة،

بين الأولين والآخرين، أعداء الله المشركون والجاحدون، إلى النار فيجىء أولهم على آخرهم، ليتم إلزام الحجة عليهم بين جميعهم ، فلا يبقى لهم مقال لأنهم لا يزالون يجادلون عن أنفسهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا » أى فبالغوا فى إنكار المخالفة « شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ » أى بأنهم سمعوا الحجج فأعرضوا عنها ، وسمعوا الشبه فاتبعوها ، وسمعوا الفواحش فاستحسنوها «وَأَبْصَـٰرُهُمْ» أى بأنهم رأوا الآيات فلم يعتبروها ، ورأوا القبائح فاختاروها «وَجُلُودُهُم » أى بأنهم باشروا المعاصى ، فوصل أثرها إلى القوة اللامسة منهم ، فيشهد كل عضو وجزء « بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ، قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

«وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ» أى المدركة ألم العذاب الذى لا يدركه السمع والبصر « لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا» أى بما يوجب إيلامكم «قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ »أى بهذه الشهادة «ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ» أى أنطق كل شىء من الحيوان. فهو من العامّ الذى خصه العقل، كقوله تعالى[1] (وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) أى كل شىء من المقدورات . هذا ، على أن النطق على ظاهره وحقيقته. وقيل المراد ظهور علامات على الأعضاء دالة على ما كانت متلبسة به فى الدنيا ، بتغير أشكالها ونحوه . مما يلهم الله من رآه أنه صدر عنه ذلك ، لارتفاع الغطاء فى الآخرة . فالنطق مجاز

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٤] .

عن الدلالة . قال القاشانىّ : معنى (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم) أى غيرت صور أعضائهم ، وصُوِّرت أشكالها على هيئة الأعمال التى ارتكبوها ، وبدلت جلودهم وأبشارهم فتنطق بلسان الحال ، وتدل بالأشكال على ما كانوا يعملون . ولنطقها بهذا اللسان قالت (أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ) إذ لا يخلو شىء ما من النطق . ولكن الغافلين لا يفهمون . انتهى . لكن قال الرازىّ : تفسير هذه الشهادة ، بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء ، دالة على صدور تلك الأعمال منهم ، عدول عن الحقيقة إلى المجاز . والأصل عدمه .

ثم قال : وهذه الآية يحسن التمسك بها فى بيان أن البنية ليست شرطا للحياة ، ولا لشىء من الصفات المشروطة بالحياة . فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق فى كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء ، والله أعلم .

تنبيه :

قال الرازىّ : نقل عن ابن عباس أنه قال : المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج ، وإنه من باب الكنايات كما قال[1] (وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا) وأراد النكاح . وقال[2] (أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ) والمراد قضاء الحاجة . فتكون الآية وعيدا شديدا فى الزنى . انتهى .

وقد أشار الإمام ابن الأثير فى (المثل السائر) إلى ترجيح هذا المعنى . حيث ذكر هذه الآية فى الترجيح الذى يقع بين معنيين ، يدل عليهما لفظ واحد ، يكون حقيقة فى أحدهما ، مجازا فى الآخر . وعبارته : الجلود ههنا تفسّر حقيقة ومجازا . أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقا ، وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة ، وهذا هو المانع البلاغىّ الذى يرجح جانب المجاز على الحقيقة ، لما فيه من لطف الكناية عن المكنى عنه . وقد يسأل ههنا فى الترجيح بين الحقيقة والمجاز ، عن غير الجانب البلاغىّ .

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٥] . (٢) [٤ / النساء / ٤٣] و [٥ / المائدة / ٦] .

ويقال : مابيان هذا الترجيح ؟ فيقال : طريقه لفظ الجلود عامّ ، فلا يخلو إماأن يراد به الجلود مطلقاً ، أو يراد به الجوارح التى هى أدوات الأعمال خاصة . ولا يجوز أن يراد به الجلود على الإطلاق ، لأن شهادة غير الجوارح التى هى الفاعلة ، شهادة باطلة . إذهى شهادة غير شاهد. والشهادة هنايرادبها الإقرار . فتقول اليد : أنافعلت كذا وكذا . وتقول الرِّجل : أنامشيت إلى كذا وكذا . وكذلك الجوارح الباقية تنطق مقرّة بأعمالها . فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح . وإذا أريد به الجوارح ، فلا يخلو إما أن يراد به الكل أوالبعض . فإن أريد به الكل ، دخل تحته السمع والبصر . ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة . وإن أريدبه البعض ، فهو بالفرْج أخص منه بغيره من الجوارح ، لأمرين : أحدهما ـ أن الجوارح كلها قد ذكرت فى القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ما عدا الفرْج . فكان حمل الجلد عليه أولى ، ليستكمل ذكر الجميع . الآخر ـ إنه ليس فى الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلا الفرْج . فكنى عنه بالجلد ، لأنه موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته .

فإن قيل : إن تخصيص السمع والبصر بالذكر ، من باب التفصيل ، كقوله تعالى [1] (فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) والنخل والرمان من الفاكهة ، قلت فى الجواب : هذا القول عليك لالك . لأن النخل والرمان إنما ذكرا لتفضيلٍ لهما فى الشكل أوفى الطعم ، والفضيلة ههنا فى ذكر الشهادة ، إنما هى تعظيم لأمر المعصية . وغير السمع والبصر أعظم فى المعصية. لأن معصية السمع إنما تكون فى سماع غيبة ، أو فى سماع صوت مزمار أو وتر ، أو ماجرى هذا المجرى . ومعصية البصر إنما تكون فى النظر إلى محرم : وكلتا المعصيتين لاحدّ فيها . وأما المعاصى التى توجد من غير السمع والبصر ، فأعظم . لأن معصية اليد توجب القطع . ومعصية الفرج توجب جلد مائة أوالرجم . وهذا أعظم . فكان ينبغى أن تخص بالذكر دون

(١) [٥٥ / الرحمن / ٦٨] .

السمع والبصر . وإذا ثبت فساد ماذهبت إليه ، فلم يكن المراد بالجلود إلا الفروج خاصة . انتهى كلام ابن الأثير .

وناقشه ابن أبى الحديد فى (الفلك الدائر) بما محصله : أن حمل الجلد على الفرج إنما يتعين ، إذا كان بين لفظتى الجلد والفرج أو معناها مناسبة . ولا نجد مناسبة إلا أن يكون لأجل أن الجلد جزء من أجزاء ماهية الفرج ، فعبر عن الكل بالبعض ، وهو بعيد جدا . انتهى .

وأقول : مقصود من أثر عنه إرادة الفروج بالجلود هو إرادة الفرد الأهم والأقوى . وذلك لأن الجلود تصدق على ماحواه الجسم من الأعضاء والعضلات التى تكتسب الجريمة . ولا يخفى أن أهمها بالعناية وأولاها بالإرادة هو الفروج . لأن معصيتها تربى على الجميع . وقد عهد فى مفسرى السلف اقتصارهم فى التأويل من العامّ على فرده الأهم . كقصرهم (سبيل الله) على الجهاد ، مع أن (سبيل الله) يصدق على كل مافيه خير وقربة ونفع ومعونة ، على الطاعة . إلا أن أهم الجميع هو جهاد الذين يصدون عن الحق . فذكر الجهاد لا ينفى غيره . وهذه فائدة ينبغى أن يحرص على فهمها كل من له عناية بالتفسير . فإنها من فوائده الجليلة . وينحلّ بها إشكالات ليست بالقليلة ، والله الموفق . وقوله تعالى « وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إما من تمام كلام الجلود ، أو مستأنف من كلامه تعالى : وعلى كلٍّ ، فهو مقرر لما قبله ، بأن القادر على الخلق أول مرة ، قادر على إنطاق كل شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ » أى وما كنتم تستترون عند فعلكم الفواحش والمنكرات ، مخافة أو كراهة أن يشهد عليكم ما ذكر . أى ليس استتاركم للخوف مما ذكر ، بل من الناس . فـ (أَن يَشْهَدَ) مفعول له ،

بتقدير مضاف . أو من أن يشهد أو عن أن يشهد . أو أنه ضمن معنى الظن ، فهو فى محل نصب. وفى الآية تنبيه على أن المؤمن ينبغى أن يتحقق ، أنه لا يمر عليه حال إلا وعليه رقيب، كما قال أبو نُوَاس[1] :

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوما ، فلا تقُلْ خلوتُ . ولكن قل : علىّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ولا أن ما يخفى عليك ، يغيبُ

« وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ » أى ما ظننتم أن الله يعلم فينطق الجوارح ، ولكن ظننتم أنه لا يعلم كثيرا ، وهو ما عملتم خفية . فما استترتم عنها واجترأتم على المعاصى . وإذا كان (أَن يَشْهَدَ) مفعولا له ، فالمعنى ما استترتم بالحجب ، لمخافة أن تشهد عليكم الجوارح . فلذا ما استترتم عنها . لكن لأجل ظنكم أن الله لا يعلم كثيرا ، فلذا سعيتم فى الاستتار عن الخلق ، لا عن الخالق ، ولا عما تنطق به الجوارح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ)

« وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ » أى أهلككم بالجراءة على مخالفته فى الدنيا ، ومجادلته فى القيامة « فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ » أى لأعمال النجاة والدرجات فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ، وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ)

« فَإِن يَصْبِرُوا۟ » أى على النار « فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ » أى منزل ومسكن « وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ » أى يسألوا العتبى وهى الرجعة إلى الذين يحبون « فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ » أى المجابين إليه ، فلا يخفف عنهم العذاب .

(١) انظر الصفحة رقم ٦١٥ من ديوانه (طبعة ١٩٥٣) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ)

[٢٦] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)

« وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ » أى بعثنا لهم نظراء من الشياطين اقترنوا بهم « فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى حسّنوا لهم أعمالهم كلها ، الحاضرة والمستقبلة . فالطرفان كناية عن الجميع ، أو ما بين أيديهم من جرائم الدنيا ، وما خلفهم من التكذيب بالمعاد . قال الشهاب : وتفسير أمور الدنيا بما بين أيديهم ، لحضورها عندهم ، كالشىء الذى بين يديك تقلّبه كيف تشاء . والآخرة بما خلفهم ، لعدم مشاهدتها ، كالشىء الذى خلفك ، أو لكونها ستلحق بهم . وقد يعكس فيجعل ما بين أيديهم الآخرة لأنها مستقبلة ، وما خلفهم الدنيا لمضيّها وتركها ، كما مرّ قريباً .

وقال القاشانىّ فى تفسير الآية : أى قدرنا لهم أخداناً وأقراناً من شياطين الإنس أو الجن ، من الوهم والتخيل ، لتباعدهم من الملأ الأعلى ، ومخالفتهم بالذات للنفوس القدسية والأنوار الملكوتية ، بانغماسهم فى المواد الهيولانية . واحتجابهم بالصفات النفسانية ، وانجذابهم إلى الأهواء البدنية والشهوات الطبيعية . فناسبوا النفوس الأرضية الخبيثة والكدرة المظلمة . وخالفوا الجواهر القدسية . فجعلت الشياطين أقرانهم وحجبوا عن نور الملكوت (فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أى ما بحضرتهم من اللذات البهيمية والسبعية ، والشهوات الطبيعية (وَمَا خَلْفَهُمْ) أى من الآمال والأمانىّ التى لا يدركونها « وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ » أى فى القضاء الإلهىّ ، بالشقاء الأبدىّ « فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم » من المكذّبين

بأنبيائهم، الضالين المضلين « مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى ستروا زينة أدلة القرآن عن أتباعهم ، الذين زينوا لهم شبهاتهم الواهية « لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ » أى إذا قرأه ، ولا تصغوا له ، كيلا يؤثر عليكم وعظه « وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ » أى ائتوا باللغو عند قراءته ، ليختلط . فلا يمكنه القراءة . والمراد باللغو ما لا أصل له . أو ما لا معنى له « لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » أى تصدّون من أراد استماعه ، عن استماعه ، فلا يسمعه . وإذا لم يسمعه ، ولم يفهمه ، لم يتبعه . فتغلبون بكيدكم هذا حججه ، التى يغلب بها عقولكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

[٢٨] (ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ، لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ، جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ)

« فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ* ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ » أى المكث الأبدىّ . وفى النظم الكريم من البديع ، التجريد . وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة ، آخر مثله ، مبالغة فيها. لأنها نفسها دار الخلد . وجعلُه للظرفية الحقيقية، تكلفٌ لا داعى له . مع أن المذكور أبلغ. قاله الشهاب « جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ » أى ينكرون أو يلغون . وذكر الجحود الذى هو سبب اللغو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا » أى ندوسهما انتقاما منهما « لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ » قال القاشانىّ : أى حنق المحجوبون واغتاظوا على مَنْ أضلهم من الفريقين ، عند وقوع العذاب . وتمنوا أن يكونوا فى أشد من عذابهم وأسفل من دركاتهم ، لما لقوا من الهوان وألم النيران وعذاب الحرمان والخسران، بسببهم. وأرادوا أن يشفوا صدورهم برؤيتهم فى أسوأ أحوالهم، وأنزل مراتبهم . كما ترى مَن وقع فى البلية ، بسبب رفيق أشار إليه بما أوقعه فيها ، يتحرّد عليه ويتغيّظ ، ويكاد أن يقع فيه ، مع غيبته ويتحرّق . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ » أى وحّدوه بنفى غيره ، وعرفوه بالإيقان حق معرفته « ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ » أى فى أخلاقهم وعقائدهم وأعمالهم . وذلك بالسلوك فى طريقه تعالى ، والثبات على صراطه ، مخلصين لأعمالهم ، عاملين لوجهه ، غير ملتفتين بها إلى غيره « تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ » أى فى الدنيا، بإلهامهم. أو عند الموت، أو حين البعث « أَلَّا تَخَافُواْ » أى ما تقدمون عليه بعد مماتكم « وَلَا تَحْزَنُواْ » أى على ما خلفتم من دنياكم ، من أهل وولد . فإنا نخلفكم فى ذلك كله . أو من الفزع الأكبر وهوله ، فإنكم آمنون لآية[1]

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٣] .

(لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ) والتنزيل يفسر بعضه بعضا . أوالآيتان فى مقامين وبشارتين . وفضله تعالى أوسع، وجوده أعم وأشمل. قال القاشانىّ: وإنما تنزلت الملائكة عليهم للمناسبة الحقيقية بينهم فى التوحيد الحقيقىّ ، والإيمان اليقينىّ ، والعمل الثابت على منهاج الحق والاستقامة فى الطريقة إليه. غير نا كثين فى عزيمة ، ولا منحرفين عن وجهة ، ولا زائغين فى عمل . كما ناسبت نفوس المحجوبين من أهل الرذائل الشياطين ، بالجواهر المظلمة والأعمال الخبيثة . فتنزلت عليهم . انتهى. وقوله تعالى «وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ » أى فى الدنيا ، حال الإيمان بالغيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

[٣٢] (نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ)

«نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ» أى أحباؤكم فى الدارين. للتناسب بيننا وبينكم . كما أن الشياطين أولياء الكافرين ، لما بينهم من الجنسية والمشاركة فى الظلمة والكدورة . قال ابن كثير : أى تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا قرناءكم فى الحياة الدنيا . نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله . وكذلك نكون معكم فى الآخرة . نؤنس منكم الوحشة فى القبور ، وعند النفخة فى الصور . ونؤمنكم يوم البعث والنشور . ونجاوزكم الصراط المستقيم. ونوصلكم إلى جنات النعيم. وقال الرازىّ : معنى كونهم أولياء للمؤمنين ، أن للملائكة تأثيرات فى الأرواح البشرية ، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية . كما أن للشياطين تأثيرات فى الأرواح، بإلقاء الوساوس فيها، وتخييل الأباطيل إليها. وبالجملة، فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة، حاصل من جهات كثيرة معلومة، لأرباب

المكاشفات والمشاهدات . فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة فى الدنيا ، فهى تكون باقية فى الآخرة . فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال . بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى . وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة . وهى كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر . والتعلقات الجسمانية هى التى تحول بينها وبين الملائكة . كما قال ﷺ (١) : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ، لنظروا إلى ملكوت السموات . فإذا زالت العلائق الجسمانية ، والتدبيرات البدنية ، فقد زال الغطاء والوطاء ، فيتصل الأثر بالمؤثر ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس . انتهى .

وهو مشرب صوفىّ ومنزع فلسفىّ ، فيه شية من الرقة « وَلَكُمْ فِيهَا » أى فى الآخرة « مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ » أى من الروح والريحان والنعيم المقيم « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ » أى تتمنون « نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ » أى إكراما معدًّا لكم ، من غفور لذنوبكم ، ورحيم بتفضله وتطوله .

---

(١) هذا هو نص الحديث ، كما جاء فى مسند الإمام أحمد بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليلة أسرى بى ، لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوقى فإذا أنا برعد وبرق وصواعق . قال ، فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ، ترى من خارج بطونهم . قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا .

فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا برهج ودخان وأصوات . فقلت : ماهذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ» أى لاأحد أحسن مقالا ممن دعا الناس إلى عبادته تعالى، وكان من الصالحين المؤتمرين، والمسلمين وجوههم إليه تعالى فى التوحيد .

لطائف :

الأولى ـ قال القاشانىّ : وإنما قدم الدعوة إلى الحق والتكميل، لكونه أشرف المراتب، ولاستلزامه الكمال العلمىّ والعملىّ . وإلا لما صحت الدعوة . انتهى .

الثانية ـ فى الآية إشارة إلى ترغيبه ﷺ فى الإعراض عن المشركين ، وعما كانوا يقولونه من اللغو فى التنزيل ، مما قصه تعالى عنهم فيما تقدم . وإرشاده إلى المواظبة على التبليغ ، والدعوة ، ببيان أن ذلك أحسن الطاعات ورأس العبادات. فهذا هو سر انتظام هذه الآية فى إثر ماسبق . وثمة وجه آخر . وهو أن مراتب السعادات اثنان : كامل وأكمل . أما الكامل فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة مالأجلها يصير كاملا فى ذاته. فإذا فرغ من هذه الدرجة، اشتغل بعدها بتكميل الناقصين . فقوله تعالى[1] (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟) إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهى اكتساب الأحوال التى تفيد كمال النفس فى جوهرها . فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة ، وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية ، وهى الانتقال بتكميل الناقصين . وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق . وهو المراد من قوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا) الآية .

واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ، ونصيبا وافيا من العلوم الإلهية ، عرف أنه لاترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن ، أفاده الرازىّ .

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] . و [٤٦ / الأحقاف / ١٣] .

الثالثة ـ يدخل فى الآية كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق المشروعة ، وسبيل من السبل المأثورة . لأن الدعوة الصحيحة هى الدعوة النبوية . ثم ما انتهج منهجها فى الصدع بالحق ، وإيثاره على الخلق .

الرابعة ـ فى الآية دليل على وجوب الدعوة إلى الله تعالى ـ على ما قرره الرازىّ ـ لأن الدعوة إلى الله أحسن الأعمال . وكل ما كان أحسن الأعمال ، فهو واجب .

الخامسة ـ احتج من جوز قول (أنا مسلم) بدون تعليق على المشيئة، بهذه الآية . وقال: إطلاقها يدل على أن ذلك هو الأولى . والمسألة معروفة بسطها الغزالىّ فى (الإحياء) .

وللإمام ابن حزم فى (الفِصَل) تحقيق لطيف لا بأس بإيراده . قال رحمه الله : اختلف الناس فى قول المسلم (أنا مؤمن) فروينا عن ابن مسعود وجماعة من أصحابه الأفاضل ومن بعده من الفقهاء ، أنه كره ذلك . وكان يقول (أنا مؤمن إن شاء الله) وقال بعضهم : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله . وكانوا يقولون : من قال أنا مؤمن ، فليقل إنه من أهل الجنة .

ثم قال ابن حزم : والقول عندنا فى هذه المسئلة ، أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه . فإن كان يدرى أنه مصدق بالله عز وجل ، وبمحمد ﷺ وبكل ما أتى به عليه السلام . وأنه يقر بلسانه بكل ذلك ، فواجب عليه أن يعترف بذلك . كما أمر تعالى ، إذ قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) ولا نعمة أوكد، ولا أفضل ولا أولى بالشكر، من نعمة الإسلام. فواجب عليه أن يقول (أنا مؤمن مسلم قطعا عند الله تعالى، فى وقتى هذا) ولا فرق بين قوله (أنا مؤمن مسلم) وبين قوله (أنا أسود وأنا أبيض) وهكذا سائر صفاته التى لا يشك فيها . وليس هذا من باب الامتداح والتعجب فى شىء . لأنه فرض عليه أن يحصن دمه بشهادة التوحيد . قال تعالى[1] (قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ

(١) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ) وقول ابن مسعود عندنا صحيح. لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما فى اللغة ، إلى جميع البر والطاعات . فإنما منع ابن مسعود من القول بأنه (مسلم مؤمن) على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات . وهذا صحيح . ومن ادعى لنفسه هـذا فقد كذب بلا شك . وما منع رضى الله عنه من أن يقول المرء (إنى مؤمن) بمعنى مصدق . كيف ؟ وهو يقول (قل آمنت بالله ورسله) أى صدقت. وأما من قال فقل إنك فى الجنة ، فالجواب أننا نقول : إن متنا على ما نحن عليه الآن ، فلابد لنا من الجنة بلا شك . وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنة والإجماع ، أن من آمن بالله ورسوله ﷺ وبكل ماجاء به ، ولم يأت بما هو كفر ، فإنه فى الجنة . إلا أننا لاندرى ما يفعل بنا فى الدنيـا ، ولا نأمن من مكر الله تعالى ، ولا إضلاله ، ولا كيد الشيطان . ولا ندرى ماذا نكسب غدا . ونعوذ بالله من الخذلان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ، ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ)

«وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ » أى لكون الأولى من مقام العقل تجرّ صاحبها إلى الجنة ومصاحبة الملائكة. والثانية من مقام النفس تجر صاحبها إلى النار ومقارنة الشياطين « ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » أى ادفع السيئة حيث اعترضتك ، بالتى هى أحسن منها، وهى الحسنة . على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقا . أو بأحسن مايمكن دفعها به من الحسنات . وإنما عدل عن مقتضى الظاهر وهو (ادْفَعْ بالحسنة) إلى الأبلغ ـ لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه . وهذا الكلام أبلغ فى الحمل والحث على ماذكر. لأنه يومئ إلى أنه

مهم ينبغى الاعتناء به والسؤال عنه . قال القاشانىّ : أى إذا أمكنك دفع السيئة من عدوك بالحسنة ، التى هى أحسن ، فلا تدفعها بالحسنة التى دونها ، فكيف بالسيئة ؟ فإن السيئة لاتندفع بالسيئة ، بل تزيد وتعلو ارتفاع النار بالحطب . فإن قابلتها بمثلها كنت منحطا إلى مقام النفس ، متبعا للشيطان ، سالكا طريق النار ، ملقيا لصاحبك فى الأوزار ، وجاعلا له ولنفسك من جملة الأشرار ، متسببا لازدياد الشر ، معرضا عن الخير . وإن دفعتها بالحسنة ، سكّنت شرارته ، وأزلت عداوته ، وتثبت فى مقام القلب على الخير ، وهديت إلى الجنة ، وطردت الشيطان ، وأرضيت الرحمن ، وانخرطت فى سلك الملكوت ، ومحوت ذنب صاحبك بالندامة . ثم أشار تعالى إلى علة الأمر وثمرته بقوله « فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ » أى صديق أو قريب « حَمِيمٌ » أى شديد الولاء . وأصل الحميم الماء الشديدة حرارته . كنى به عن الولىّ المخلص فى وده ، لما يجد فى نفسه من حرارة الحب والشوق والاهتمام نحو مواليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

« وَمَا يُلَقَّىٰهَآ » أى هذه الخصلة الشريفة ، والفضيلة العظيمة ، وهى مقابلة الإساءة بالإحسان « إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ » أى على تجرع الشدائد . أو على طاعته تعالى وأمره ، تخلقا بالعلم والعفو « وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » أى من الخير وكمال النفس . ومن الله تعالى بالتخلق بأخلاقه . ومن الثواب وكمال العقل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

« وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » أى وإما

يلقين الشيطان فى نفسك وسوسة من حديث النفس، إرادة حملك على مجازاة المسىء بالإساءة، والانتقام منه ، فاستجر بالله واعتصم من خطواته ، بالرجوع إلى جنابه تعالى ، واللجأ إلى حضرته ، من شره ووسوسته ونزغه . قال ابن كثير : قدمنا أن هذا المقام لانظير له فى القرآن إلا فى سورة الأعراف وهو قوله تعالى[1] (خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » وفى سورة المؤمنون وهو قوله سبحانه[2] (ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [سجدة]

« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ » أى حججه تعالى على خلقه ، ودلالته على وحدانيته وعظيم سلطانه « ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ » أى اختلافهما ، ومعاقبة كل واحد منهما صاحبه « وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ » أى نورها وإشراقهما وتقدير منازلها ، واختلاف سيرها فى سمائهما ، لبقاء صلاح الكون « لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ » لأنهما مسخران بتسخير خالق قادر عليم، فهما مخلوقان « وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أى تفردونه بالعبادة . فإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة ، ولا تشركوا فى طاعته أحدا . لأنها لا تنبغى لأحد سواه .

تنبيه :

استدل بالآية الشيخ أبو إسحق فى (المهذب) على صلاة الكسوف . قال : لأنه لا صلاة تتعلق بالشمس والقمر غيرها . وأخذ من ذلك تفضيلها على صلاة الاستسقاء ، لكونها فى القرآن ، بخلافها . كذا فى (الإكليل) .

(١) [٧ / الأعراف / ١٩٩و٢٠٠] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٩٦ـ٩٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ)

« فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ » أى عن عبادته كبرا وعتوا « فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ » أى من الملائكة « يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ » أى لا يملّون عبادته ، لأنها قرة أعينهم وحياة أنفسهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ، إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

[٤٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ، أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ، ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[٤١] (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ، وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ)

« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً » أى ساكنة لا حركة لعشب فيها ولا نبات ولا زرع « فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ » أى اهتزت بالنبات وتحركت بزينته ، وربت بارتفاعه على سطحها ، أى صارت ربوة مرتفعة « إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا » أى هذه الأرض الدارسة ، فأخرج منها النبات ، وجعلها تهتز بالزرع من بعد يبسها « لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا » أى يميلون عن حججنا وأدلتنا ، ويزيغون عنها تكذيباً لها وجحوداً لها « لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ » أى لإحاطة علمه بهم ، وكونه بالمرصاد لهم ، فسيجزيهم .

تنبيه :

شملت الآية من بضع الكلام فى الآيات على غير مواضعه ، كما فسّرها ابن عباس . قال فى (الإكليل) : ففيها الرد على من تعاطى تفسير القرآن بما لا يدل عليه جوهر اللفظ ، كما يفعله الباطنية والاتحادية والملاحدة وغلاة المتصوفة « أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ » أى بهذا القرآن « لَمَّا جَآءَهُمْ » أى فهم هالكون . فالخبر محذوف . أو الجملة بدل من جملة (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا) « وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ » أى منيع محمىّ عن التغيير والتبديل ، وعن محاكاته بنظير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

« لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ » أى لا يتطرق إليه البطلان من جهة من الجهات .

قال القاشانىّ : لا من جهة الحق فيبطله بما هو أبلغ منه وأشد إحكاما فى كونه حقا وصدقا . ولا من جهة الخلق فيبطلونه بالإلحاد فى تأويله ، ويغيّرونه بالتحريف لكونه ثابتا فى اللوح محفوظا من جهة الحق . كما قال[1] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ) وفيه تمثيل لتشبيهه بشخص حمى من جميع جهاته . فلا يمكن أعداءه الوصول إليه لأنه فى حصن حصين من حماية الحق المبين . هذا على أن ما بين يديه وما خلفه ، كناية عن جميع الجهات . كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله . أو المعنى : لا يتطرق إليه باطل فى كل ما أخبر عنه من الأخبار الماضية والآتية . والماضية ما بين يديه ، والآتية ما خلفه . أو العكس

(١) [١٥ / الحجر / ٩] .

كما مرّ « تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » قال ابن جرير[1] : أى هو تنزيل من عند ذى حكمة ، بتدبير عباده وصرفهم فيما فيه مصالحهم ، محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)

« مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ » أى ما يقول لك كفار قومك ، إلّا مثل ما قال للرسل كفارُ قومهم ، من الكلمات المؤذية والمطاعن فى الكتب المنزلة . أى فاصبر كما صبروا « إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ » أى لذنوب التائبين إليه من ذنوبهم ، بالصفح عنهم « وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ » أى لمن أصرّ على كفره وذنوبه ، ومات قبل التوبة منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ)

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ » أى بيّنت أدلته وما فيه ، بلسان نعرفه لنفهم مافيه . قال الزمخشرىّ : كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ؟ فقيل : لو كان كما يقترحون ، لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا : لولا فصلت آياته ؟ أى بيّنت ولخصت بلسان نفقهه « ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ » الهمزة همزة الإنكار ، يعنى : لأنكروا وقالوا : أقرآن أعجمىّ ورسول عربىّ ؟ أو مرسَل إليه عربىّ ؟ والمعنى : إن آيات الله

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

على أى طريقة جاءتهم ، وجدوا فيها متعنتا . لأن القوم غير طالبين للحق . وإنما يتبعون أهواءهم . انتهى .

قال الشهاب : والأعجمىّ أصله (أعجم) . ومعناه من لا يفهم كلامه للكنة أو لغرابة لغته . وزيدت الياء للمبالغة . كما فى أحمرىّ . ويطلق على كلامه مجازا . لكنه اشتهر حتى ألحق بالحقيقة . وأما العجمىّ فالمنسوب إلى العجم . وهم مَنْ عدا العرب . وقد يخص بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضا . فبين الأعجمىّ والعجمىّ عموم وخصوص وجهىّ . انتهى « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ » أى: هو للمؤمنين بالغيب هداية تهديهم إلى الحق ، وتبصّرهم بالمعرفة . وشفاء يزيل أمراض قلوبهم من الرذائل . كالنفاق والشك . أى تبصّرهم بطريق النظر والعمل ، فتعلمهم وتزكيهم « وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » أى لا يسمعونه ولا يفهمونه . بل يشتبه عليهم لاستيلاء الغفلة عليهم ، وسد الغشاوات الطبيعية طرق أسماع قلوبهم وأبصارها . فلا ينفذ فيها ولا يتنبهوا بها ولا يتيقظوا « أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ » أى مثلهم فى عدم قبولهم الحق ، واستماعهم له ، مثل من يُصَيَّحُ به من مسافة شاطة ، لا يسمع من مثلها الصوت ، فلا يسمع النداء . وذلك لبعدهم عن منبع النور الذى يدرك به الحق ويرى . وانهماكهم فى ظلمات الهيولى . قال الشهاب : وجعل النداء من مكان بعيد ، تمثيلا لعدم فهمهم وانتفاعهم بما دُعُوا له . يقال : أنت تُنَادَى من مكان بعيد ، أى لا تفهم ما أقول . وقيل : إنه على حقيقته ، وإنهم يوم القيامة ينادون كذلك ، تفضيحا لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ » قال ابن جرير[1]: أى فاختلف فى العمل

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٩ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بما فيه الذين أوتوه من اليهود. وقال ابن كثير: أى كذّب وأوذى، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ » وهى العدة بالقيامة وفصل الخصومة حينئذ. أى لولا أنه تعالى قدر الجزاء فى الآخرة « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى بتعجيل العذاب[1] (بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا)[2] (بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ) « وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ » أى موقع للريب والاضطراب لأنفسهم وأتباعهم، لعمى بصائرهم وتبلد عقولهم. وإلا فالحق أجلى من أن يخفى. وقال ابن كثير: أى وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم، لما قالوا. بل كانوا شاكّين فيما قالوه، غير محققين لشىء كانوا فيه. هكذا وجّهه ابن جرير. وهو محتمل. والله أعلم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٦] (مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ)

« مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ » أى من عمل بطاعة الله، فائتمر لأمره وانتهى عما نهاه، فلنفسه نفعه. لأنه يجازى عليه جزاءه الحسن « وَمَنْ أَسَآءَ » أى عمل السيئ وعصى « فَعَلَيْهَا » ضرّه. لأنه جنى على نفسه بذلك، ما اكتسبها سخط الله تعالى والعقاب الأليم « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ » أى لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يعذّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ، وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ)

(١) [١٨ / الكهف / ٥٨] . (٢) [٥٤ / القمر / ٤٦] .

« إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ » أى لا يعلمها إلا هو . أو المعنى : إذا سئل عنها يقال : الله عالم بها « وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا » أى أوعيتها « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ » أى مقروناً بعلمه . قال الزمخشرىّ : يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى » أى الذين كنتم تشركونهم فى عبادتى « قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ » أى أعلمناك ما منا من يشهد لهم بالشركة ويقرّ بها الآن . فـ (شَهِيدٍ) فعيل من الشهادة . ونفى الشهادة كناية عن التبرؤ منهم . أو هو منهم إنكار لعبادتها . فيكون كذبا ، كقولهم [1] (وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ)

« وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ » أى يعبدون من الأوثان ، فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئاً « وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ » أى وأيقنوا يومئذ مالهم من ملجأ يلجأون إليه من عذاب الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ)

« لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ » أى لا يمل من مسألته ربه بالخير ، كالمال وصحة الجسم « وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ » أى الضرّ فى نفسه من سقم أو جهد فى معيشته « فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ » أى من روح الله ورحمته ، ومن أن يكشف ما نزل به . قال الزمخشرىّ : بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء (فعول) ومن طريق التكرير . والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر .

(١) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ، فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

« وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ » أى بتفريجها عنه « لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى » أى حق نلته بعملى ، لا بفضل من الله . جحدا للمنعم « وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ » أى للحالة الحسنى من الكرامة . تخرصا ورجما بالغيب ، وتلاعبا بما شاء الهوى « فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ » أى فلنخبرنّ هؤلاء المتمنين على الله الأباطيل ، بحقيقة أعمالهم . ولنبصرنّهم عكس ما اعتقدوا فيها « وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ » وهو تخليدهم فى النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ)

« وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ » أى إذا كشفنا ما به من ضر ، ورزقناه غنى وصحة وسعة ، أعرض عما دعى إليه من الطاعة ، وتكبر وشمخ بأنفه عن الإجابة « وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ » أى كثير . يديم تضرعه ، ويستغرق فى الابتهال أنفاسه . وقد استعير (العرض) لكثرة الدعاء . كما يستعار له (الطول) أيضا . فيقال : أطال فلان الدعاء ، إذا أكثر . وكذلك أعرض دعاءه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ)

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ » أى القرآن « مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ » أى من غير نظر واتباع دليل « مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ » أى من أضل منكم . فوضع الموصول موضع الصلة ، شرحا لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم . والشقاق الخلاف . لكون المخالف فى شق وجانب ممن خالفه . قال الشهاب : الآية رجوع لإلزام الطاعنين والملحدين. وختم السورة بما يلتفت لفت بدئها ، وهو من الكلام المنصف . وفيه حث على التأمل ، واستدراجٌ للإقرار. مع مافيه من سحر البيان . وحديثُ الساعة وقع فى البين تتميما للوعيد. وتنبيها على ما هم عليه من الضلال البعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)

« سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ » يعنى وقائع النبىّ ﷺ بنواحى بلد المشركين من أهل مكة وأطرافها . وظهوره على الناس تصديقاً للوعد « وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ » أى من غلبتهم وقهرهم وكسر شوكتهم . كما وقع فى بدر وفتح مكة « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ » أى أن هذا القرآن ، بوعده ووعيده ، هو الحق الثابت ، إذ لا برهان بعد عيان . فقد نصر اللهُ رسوله وصحبه ، وخذل الباطل وحزبه « أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » أى لا يخفى عليه شىء ما ، مما يفعله خلقه ، وهو مجازيهم عليه . ففيه وعد ووعيد.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ، أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ)

« أَلَا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ » أى فى شك عظيم من البعث بعد الممات ، ومعادهم إلى ربهم « أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ » أى فلا يخرج عن إحاطته شىء[1] (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .